الاساليب الكتابية العربية

(ما رأي قراء المقتطف في الاساليب الكتابية العربية المتبعة الآن في مصر والشام وبين الجالية العربية في اميركا . ايها يرجح ان يفوز على غيره فاني ارى فرقاً كبيراً بين اسلوب المقتطف وسائر المجلات والجرائد التي تجري مجراهُ وبين الاسلوب الذي امتازهُ بالشعر المنثور واسلوب الاسترسال الذي جرى عليهِ بعض المتقدمين من الكتاب كما فيما اثبتهُ القلقشندي من منشآتهم ويجري عليهِ بعض الكتاب في مصر الآن) مقتطف نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٢٨٧

الفكر والحياة لا يحدّان، كلاهما كثير المناحي والمظاهر، لا تضرب في ناحية من انحائهما الا وتتشعب امامك طرق ومسالك ما كنت تحلم بوجودها، ولا تستكشف مظهراً من مظاهرها الاّ وينكشف لك البرقع عن مظاهر اخرى رائعة خلابة تستدعي البحث والاستقصاء لادراك بعض كنهها واستجلاء جانب من معانيها . وما من احد مهما اتسع علمهُ وغزرت حكمتهُ بقادر ان يستجلي اقصى افصائها . واللغة هي الوسيلة التي يعرب الانسان بها عما استوقفهُ في ناحية ملرقّبها من نواحي الفكر او مظهر راعهُ من مظاهر الحياة . ولما كانت الطبائع الفردية تختلف باختلاف الوراثة والبيئة والتربية والنزعة الشخصية كانت الطرق التي تستخدم اللغة بها للتعبير عن الفكر الواسع المتشعب والحياة الزاخرة الرائعة مختلفة باختلاف اصحابها . لذلك ارى انهُ لا يصح ابداً حصر الاساليب الكتابية في اية لغة من اللغات في عدد محدود من الاساليب لان غنى اللغة في تعدد اساليبها اذ في ذلك دليل على ان الكتّاب الذين يكتبون فيها قد طرقوا نواحي مختلفة من الفكر ودرسوا مظاهر متباينة من الحياة وتبينوا اسراراً كثيرة من الوجود . والكاتب الذي لا يستطيع ان يطبع الاداة اللغوية التي يستخدمها لقضاء مآربهِ الفكري بطابع خاص من فكرهِ وذوقهِ ليس بالكاتب الذي يقام لهُ وزن في معرض الادب الراقي. والانحطاط كل الانحطاط ان ينظر الجميع الى جهة واحدة من الفكر والحياة والطامّة كل الطامّة في ان يروا الاشياء انفسها ويعبّروا عنها على اسلوب واحد بغير ميزة بين تعبير الواحد وتعبير الآخر . لذلك ليس من المستطاع ولا من المستحسن ان يتغلب

اسلوب واحد على الاساليب الاخرى فتفنى فيه ويصبح الكتّاب آلات كتابية تركب من الكلمات عبارات خالية من شعلة الحياة تتلظى بين حروفها وكلماتها الا اذا عقمت اللغة ولم ينجب بين ابنائها سوى المقلّدين والتقليد ضربة قاضية على روح الادب الصحيح لانهُ يقيد المقلِّد ويمسخ المقلَّد . الا ترى ان الكاتب يكون في بدء حياته الادبية مضطرب الاسلوب غير بارز الشخصية يقلد هذا ويقلّد ذاك ثم لا يلبث ان تبرز شخصيتهُ فتتضح حدودها ومميزاتها ويصفو الاسلوب الذي يكتب فيه ويستقرّ ويصبح اسلوبهُ الخاص الذي لا ينفصل عن فكره وشخصيته

ان الرقي الفكري لا يستطيع ان يتخذ اسلوباً واحداً من الكتابة يسير فيه دون غيره لان الرقي الفكري يتألف من عناصر كثيرة لا بدّ من وجودها جميعاً حتى يتكون الكل التام . وكل عنصر من هذه العناصر يجب ان يكتب بطريقة تختلف بوجه عام عن الطريقة التي يكتب بها العنصر الآخر . فالنهضة الفكرية الحديثة في الشرق العربي تناولت العلوم على اختلافها وبعضاً من الفنون الادبية . ولا شك ان سيقوم بيننا كتّاب يتناولون جميع الفنون الادبية . ولذلك فالاسلوب العام الذي يكتب فيه علم من العلوم لا يمكن استخدامهُ لصوغ العواطف والتعبير عن رغبات النفس وخواطر الضمير كما انهُ لا يستطاع نظم العلوم المختلفة شعراً لانهُ اذا نظمنا الحقائق العلمية شعراً او كتبناها على طريقة الشعر المنثور او طريقة الترسّل والتسجيع كسيت غشاءه جمالاً لذاته ولكنهُ يشوّه الحقائق نفسها . ولما كانت الغاية من الكتابة العلمية تقريب تلك الحقائق من افهام القراء فنظمها شعراً او صوغها على طريقة الشعر المنثور او طريقة الترسّل والتسجيع يوجد التناقض بين الغاية والوسيلة ويبعدنا كثيراً عن تحقيق ما نرمي اليه . من يستطيع ان يكتب خطبة السر اوانست وذرفرد او مقالة الكبد والصحة المنشورتين في مقتطف نوفمبر الماضي على الطريقتين المذكورتين آنفاً دون ان يشوّه حقائقهما ويفسد الغاية من كتابتهما ؟ وهل اذا استطاع كان عملهُ مستحسناً او جميلاً ؟ ان اللغة المستعملة في المجلات والجرائد التي من قبيل لغة المقتطف ضرورية كل الضرورة للكتابة العلمية لانها سهلة الالفاظ قريبة التناول واضحة المعنى مختزلة التركيب وبها او بما مثلها نستطيع نشر العلوم والمعارف . ومع ذلك انها تتنوع باختلاف كتّابها

اما الاسلوب المعروف بالشعر المنثور فقد تفوّق فيه جبران لانهُ يتفق مع

شخصيته وفكره وعاطفته . جبران شاعر روحاني وفنان رمزي والاسلوب الذي يجري عليه في ترجمة روحانيته يفي بمطلوبه لانهُ كثير الرموز بسيط المنهج واضحهُ ويخضع لجمال الصياغة الفنية . على ان البعض نظروا الى اسلوبه هذا فشاقهم ولم يروا ان اسلوبهُ وفكرهُ لا ينفصلان فقاموا يقلدون . وفي التقليد اجحاف بحقوق الفريقين — المقلَّد والمقلِّد . فانتشار هذا الاسلوب بجهاله الرائع كما يستعملهُ جبران متعذر بل مستحيل لان ليس كل الكتاب فنانين رمزيين ولا شعراء روحانيين . واما كتابة المقلدين فلا تستطيع التفوق والفوز شأن كل زائف في الحياة . وهناك بعضٌ من كبار الادباء يكتبون باسلوب يحسب لاول وهلة اسلوب جبران ولكنهُ ليس كذلك . بل لكلٍّ منهم اسلوبهُ الخاص وليس من الصعب على من لهُ المام بالاساليب الكتابية الحديثة ان يقول هذا اسلوب فلان وذاك اسلوب فلان

على ان اسلوب الشعر المنثور اصبح مرادفاً في اذهان الكثيرين للنزعة الجديدة في الادب العربي والنزعة الجديدة عند البعض تعني فيما تعنيه الخروج على قواعد اللغة ومميزاتها الخاصة . فيجب ان لا ندع هذا الخلط يشوّش علينا حالة الادب العربي الصحيحة . بل يجب التفريق بين النزعة الى التجدد وبين الخروج على اللغة وقواعدها ومميزاتها — اما الاولى فمقدورة لها الحياة لان التجدد كالانتشار مظهران لا ينفصلان من مظاهر الحياة . واما الثانية فعاصفة تهب الآن وتسكن بعد حين

وما يقال في الشعر المنثور يقال بوجهٍ عام في اسلوب الاسترسال

ولا يغرب عن الذهن ان لكل اسلوب قراءً يفهمونهُ دون سواهُ واحوالاً تروّجهُ او تقضي عليهِ كظهوره في وقت مناسب واقبال اصحاب الزعامة عليه يقرأونهُ ويكتبون فيهِ واستعداد الجمهور لقبوله وعلاقته بتقاليدهم الراسخة وعاداتهم القومية

الخلاصة انهُ في سوى الكتابة العلمية لا يصحّ ان يكون لنا اسلوب واحد او عدد محدود من الاساليب لان ذلك دليل على الضيق والتقيد وسبيل الى الانحطاط . بل يجب ان يكون لكل كاتب — يصح ان يدعى كاتباً — اسلوبهُ الخاص . وعسى ان ينشأ بيننا كلّ يوم كاتب يبتدع اسلوباً جديداً يتفق مع نزعاته وشخصيته ولو كان يختلف عن سائر الاساليب فيرسم لنا من الحياة صوراً شائقة ما كنا نستطيع رؤيتها لولاهُ . ذلك هو الكاتب النابغ الذي يزيد لغتهُ ثروة فكرية ويوسّع لقومهِ الافق الذي ينظرون منهُ الى مشاهد الحياة

فؤاد صرّوف